شعر العلماء "رؤيـة نقديـه"

الأستاذ محمد محمد محمود الشيخ *

ما حادثت أحداً حول قضية شعر العلماء إلا وجدتُه يحكم حكما مطلقا معمما عليه بالضعف ، إذ يطغى عليه الفكر ، وليس معبرا عن ذات أصحابه ولا نابعا من وجدانهم ، كما يزعمون.(١)

و بهذا الحكم المسبق يخرج مناقشهُ الى الوصول الى نتيجة واحدة ، مؤداها أن دراسة هذا الشعر غير مطلوبة ولا مفيدة. وذلك الحكم يكون- غالبا- غير مصحوب بنظر فى كم معقول من شعر ذلك الصنف من البشر.

والحق أن العلاقة بين العلم والشعر قديمة ، قد ترجع فى قدمها فى تراثنا الى القرن الأول الهجرى ، عندما أخذ بعض الشعراء يستعيرون مصطلحات العلوم فى أشعارهم ، وعندما أخذ بعضهم يصوغ بعض قضايا العلم شعرا ، ثم تطور ذلك الى اتخاذ بعض العلماء من الشعر وسيلة للتعبير عن مضامينهم العقلية و الوجدانية كأبى الأسود الدؤلى والخليل بن أحمد وخلف الأحمر وابن دريد وغيرهم.

---

* مبعوث الأزهر الشريف إلى جامعة بنجاب لاهور. باكستان

وكان للنقاد– قديما وحديثا– من تلك الحال موقف يكاد يكون واحداً ، فقد وجدت نصوص نقدية قديمة ، ساعدت على غرس حكم نقدى ، مفاده: أن كل ما يصدر عن العلماء من شعر ممقوت ومتكلف ، وأنه قلما تجتمع الشاعرية والعلم فى إنسان.

فها هو ذا الجاحظ يقرر أنه " قد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليست له طبيعة فى الكلام ، وتكون له طبيعة فى التجارة وليست له طبيعة فى الفلاحة... ويكون له طبع فى تاليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع فى قرض بيت من الشعر ، ومثل هذا كثير جدا"(٢).

والمسجديون– وهم طائفة تلتزم مسجدى الكوفة والبصرة– يقولون: "من تمنى رجلا حسن العقل حسن البيان حسن العلم فقد تمنى شيئا عسيرا"(٣)

وهذا ابن قتيبة يعلق على أبيات للخليل بن أحمد بقوله:"وهذا الشعر بين التكلف ردئ الصيغة ، وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة كشعر الأصمعى وشعر ابن المقفع وشعر الخليل"(٤)

وقد درج الأقدمون من المؤرخين على الحكم على أشعار بعض العلماء الذين يترجمون لهم بالضعف . من أمثلة ذلك قول ابن الأثير المؤرخ عن ابن جنى :"وله شعر بارد"(٥)

كما كانوا يشبهون شعر الشاعر المتخلف بشعر النحاة ، فقد ذكروا عن معاذ الهراء أنه " له شعر كشعر النحاة"(٦)

ومما ساعد على شيوع هذا الحكم النقدى وثباته فى نفوس دارسى الشعر ونقدته قول الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد (٧)

وأثر ذلك الحكم فى نفوس بعض العلماء ، فوجدنا لهم عبارات فيها نفور من الشعر رغم امتلاكهم لأدواته ومهيئاته. فقد قيل: "عمل الشعر على الحاذق أشد من نقل الصخر . ويقال: إن الشعر كالبحر أهون مايكون على الجاهل وأصعب مايكون على العالم، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته"(٨)

وقيل للمفضل الضبى : لم لا تقول الشعر و أنت أعلم الناس به؟!!

قال: علمى به هو الذى يمنعنى من قوله. وأنشد:

وقد يقرض الشعر العيى لسانه

و تعيى القوافى المرء وهو لسن(٩)

وهكذا شاع الحكم بالضعف الفنى على شعر العلماء حتى وجدنا فى عصرنا هذا من يتابع الأسلاف فى هذا الحكم المعمم دون تريُّث أو روية ، فهذا أحدهم يقول:" و فرق بعيدٌ بين الأديب و العالم، فالعالم قد يوصف بسعة التفكير ولكنه لا يستطيع أن ينظم بيتا من الشعر مع ما أوتى من علم واسع بالحقائق ، وقد يستطيع – كما هو الشأن فى علماء النفس – أن يحلل الطبيعة الإنسانية ، ولكن تحليله ليس من الأدب فى شيء ، لأن الأدب وظيفتهُ أن يصور لا أن يشرح كما يشرح العلم. بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن التفكير و رقيه قد يعوق الخيال"(١٠)

وهذا آخر يقرر:" وطبيعة العلم فى معظم الأمر تعارض طبيعة الشعر . فإن رقة الطبع وسعة الخيال والحياة فى الأجواء الشاعرية والعاطفية ليس للعلماء منها حظ الشعراء الذين نصبوا أنفسهم لهذا الفن وعشوا فيه وقضوا فيه حياتهم"(١١)

ولكن مسيرة شعرنا العربى وما احتواه من فنون تدحض- فى نظرى- هذا الحكم . ففى تراثنا نتاج شعرى سابق لكثير من علمائنا المبرزين فى معارف البشرية المختلفة . يضاهى نتاج فحول شعرائنا. بل إن بعضه يفوقه مشكلا و مضمونا.

وقد أحسن ابن قتيبة حين أردف كلامه السابق ذكره- بقوله: " خلا خلف الأحمر . فإنه كان أجودهم طبعا و أكثرهم شعرا"

إذ استطاع أن ينقذ قلمه من مغبة إصدار حكم عام على شعر العلماء بهذا الاستثناء.

ويكفينا فى الدلالة على ما يدحض هذا الرأى قول القدماء أنفسهم عن ابن دريد اللغوى والراوية المعروف" أعلم الشعراء وأشعر العلماء".

لقد كان صدور هذا الحكم عن نقاد حكموا على أصحاب الشعر لا على الشعر نفسه و أخرجوا حكمهم هذا بعد النظر فى نماذج شعرية هابطة رديئة واضحة التكلف . يمكن أن توجد مظاهر التكلف بها فى شعر أى شاعر آخر من غير العلماء . فالحكم- إذن -ليس بجامع ولامانع.

إن العلماء– كغيرهم من الشعراء – فيهم المطبوع الموهوب ذوالملكة· وفيهم غير ذلك · وكان حكم معظم النقاد مُنصبًّا على الصنف الثانى فقط من العلماء وعلى ماهم من نتاج.

والنظرة الصحيحة أن ننظر إلى العلم والشعر علم أنهما قرينان لاضدان· فالعلم لايمكن أن تستسيغه العقول وينتفع به الناس الإ إذا ظهر فى صورة فنية · وكذلك الفن لايمكن أن ينمو ويزدهر الإ إذا كان له من العلم سند وظهير· فها صنوان لايستغنى أحدهما عن الآخر· فالعلم إذا انفصل عن الفن كان مجرد حقائق جافة · لاتغنى فى الحياة شيئا · والفن إذا انفصل عن العلم كان عبثًا وخرافة وتهويما.

لقد نسى الذين يؤمنون بأن الفجوة بين الشعر والعلم كالفارق بين الأضداد أن أعظم الشعراء الذين أقاموا صروح الشعر فى مختلف الأزمان والبقاع كانوا من ذوى النظرة الفلسفية والعقلية والعلمية · التى من شأنها أن تساعد الشاعر على احتواء الكون كله فى قصيدة واحدة تخلد على مر العصور.

ولعل الحكم الصائب فى هذه القضية هو أن المدار على وضع الكلمة أو المصطلح فى الجملة أو الفقرة التى تتضمنها · فإن كان ذلك ممّا لعب فيه الذوق الفنى دوره و أداه بعناية كان مقبولا و مستحسنا والإ بأن تقلقلت العبارة · وضاقت باللفظة المقتبسة · فإن من حق الناقد أن يدين الأثر الأدبى الذى يقع فى هذا المحظور ويحكم عليه بها أملته عليه ذائقته...

هوامش المقال

١- أستثنى من هؤلاء الأستاذ عبدالله كنون الناقد المغربى المعروف ، إذ أن له مؤلَّف فى هذه القضية و فى الدفاع عن شعر العلماء بعنوان " أدب الفقهاء " وإن كان منهجى فى تناولها مخالفا- بعض الشيء- لمنهجة ، ويظهر ذلك للموازن بين مقالى وكتابه ، وله الأسبقية. رحمه الله تعالى.

٢- البيان والتبيين ١/٢٠٨

٣- السابق ١/٢٤٣

٤- الشعر والشعراء ١/١٥

٥- من مقدمة محقق الخصائص ١/٥١

٦- إنباء الرواة على أخبار النحاة ٣/٣٨٨

٧- ديوان ص٧٣ ، تح ا.د/محمد عبدالمنعم خفاجى

٨- العمدة لابن رشيق ٢/١١٧

٩- السابق ، الصفحة نفسها

***